عطف الفقراء على الأغنياء في الإسلام

للأستاذ محمد الخضر حسين
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية والمدرس بكلية أصول الدين

نظم الإسلام صلة المخلوق بالخالق جل شأنه فأرشد إلى الإيمان الخالص. ودل على مظاهر العبادات الصحيحة ولم يقتصر على هذه الصلة المقدسة. بل نظر إلى الناس وهم مدنيون بطبعهم، وعمد إلى ما يربطهم من صلات، فعدها، وأخرجها لهم في أصفى لون وأحسن وضع.

عرفنا كيف تكون الصلة بين الإنسان ومن تصله بهم قرابة أو زوجية أو تعاون على القيام بما تستدعيه الحياة المنزلية فكان نظام الأسرة والمنزل محفوفا بالطمأنينة والهناءة ثم عرفنا كيف تكون المعاملات القائمة على تبادل المنافع من نحو البيع والإجارة فأرشد السبيل إلى أن نتعامل ونتفارق على وفاق وائتلاف.

ثم نظر الإسلام نظرة بعيدة المدى إلى الفريق الذين يقعون في ضيق من العيش، ولا يستطيعون حيلة إلى ما يسد حاجتهم الحيوية، فأبت حكمته أن يظل البائسون بين ذوي اليسار يقاسون آلام الضراء، ويبيتون هم وأفلاذ أكبادهم في كرب من الجوع والبرد، فوضع بين فريق البائسين والموسرين صلة أحكم ربطها وحاطها بسياج من العدالة.

بنى الإسلام أحكامه وآدابه على أساس العزة والكرامة، فكره للرجل أن يخلد إلى البطالة ويتعرض للصدقات وهو قادر على أن يضع يده في عمل يكسب به قوته، أو قوت من يعول، قال صلوات الله عليه (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه).

وكره الاسلام لمن ابتلوا بقلة ذات اليد أن يسارعوا إلى الاستجداء ولهم في التجمل متسع فانظروا كيف نبه القرآن الكريم على فضل قوم ضاقت أيديهم عن الكسب فلاذوا بالتعفف وارتدوا بالتجمل، فقال:

"لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا".

ويعد هذا التعفف من مفاخر الجماعة.

كاف الاسلام البطالة ونصح لمن وقع فى فاقة بأن يحتفظ بماء وجهه و يترفع عن التكفف ما وجد للعسير على العسرة موضعا ثم أقبل على أولى اليسار يربى فيهم عاطفة الاحسان و يقيمها على قواعد حكيمة رشيدة .

نراه قد عنى بالاحسان الى طوائف خاصة ممن يحتاجون الى أن يعانوا على نوائب الزمان فأمر بالاحسان الى ذوى القربى. والآيات والأحاديث الواردة فى فضل صلة الرحم وماتأتى به من خير الدنيا والآخرة لايسع المقام لإيرادها و يكفى شاهدا على ماتقول إنه حث الرجل على أن يحسن إلى أقارب من كان صديقا لأبيه . قال صلوات الله عليه (إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى) .

وأمر بالاحسان الى اليتامى ، ذلك أنهم فقدوا أحضان من كان يرعاهم و يكفيهم أمر عيشهم وهم لضعفهم عاجزون عن أن يصلوا الى قوتهم بأيديهم .

وأمر الرجل بالإحسان الى الجيران ولو لم تربطهم به رابطة قرابة. قال صلوات الله عليه : (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) .

وأمر بالإحسان الى أبناء السبيل ذلك أنهم يقدمون على البلد وهم يجهلون موارد الرزق أو لاتصل أيديهم الى كسب القوت بسهولة .

وقد جمع القرآن الكريم هذه الطوائف وأمر بالإحسان اليها فى آية واحدة قال تعالى :

"وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ".

حرض الإسلام على الاحسان الى ذوى القربى واليتامى والجيران وأبناء السبيل وأقبل يدعو الى بذل المعروف على وجه عام و يهز عواطف الموسرين الى البر بكل فقير هزا رفيقا فنجده يعد على الصدقات بالوقاية من النار و يعد عليها بنعيم الجنة و يدفع ظن من يقع فى نفسه أن الصدقات نقص فى الأموال ، فيعد المتصدقين بتعويض ماأنفقوه فى الدنيا قبل الآخرة قال تعالى :

"وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ" .

فهذه الآية دلت على أن الصدقات من أسباب سعة الرزق ؛ ومن أصدق من الله قيلا وتجد القرآن الكريم يثنى على المصطفين من الناس فيذكر فى خصالهم الحميدة رحمتهم بالفقراء وصرفهم جانبا من أموالهم فى إغاثتهم قال تعالى :

"وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ" .

ولا تنس أن من حكمة فرض الصيام أن يذوق الأغنياء مرارة الجوع الشديد فيذكروا ما يقاسيه الفقراء من أمثال هذا الجوع المؤلم فيدعوهم ذلك إلى أن يبسطوا إلى الفقراء أيديهم بالاحسان ما استطاعوا ، كانت أم حاتم تكثر من الاحسان وتقول : والله لقد مسنى من الجوع ما آليت معه ألا أمنع سائلا شيئا .

أراد الشارع ألا يفوت أحدا من الناس فضل التصدق فرغب فى الصدقة واعتد بالقليل أو الحقير مما يتصدق به فقال صلوات الله عليه (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يكن فبكلمة طيبة) وقال (لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) وبذا ضم القليل الى القليل والحقير الى الحقير صارت لقلة كثرة والحقارة عظما ومن هنا يتيسر للإنسان أن يدخل فى قبيل المحسنين وإن لم يكن فى سعة من الرزق .

ومن عناية الشارع باغاثة الملهوفين أننا نجده يحث من ليس بيده مال على أن يعمل ليدرك فضل التصدق ، قال صلوات الله عليه (على كل مسلم صدقة) قالوا فان لم يجد ؟ قال (فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق) .

عمل الرجل بيده ليتصدق على الفقراء شاهد صدق على بلوغ النفس فى الكرم ورقة العطف غاية سامية ، ومن أصدق الشواهد على رسوخ النفس فى الرأفة والسخاء أن يؤثر الرجل مسكينا ذا مترية بنحو مطعوم أو ملبوس وإن كان هو فى حاجة إليه ، وإلى هذا الصنف من المحسنين يشير فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

"وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ" .

ولا تعجبوا للرجل يعمل بيده ليغيث الملهوفين ، ويؤثر بالشىء وهو فى حاجة إليه فإنه يجد فى الاحسان والإيثار لذة تجعل ما أحسن أو آثر به شيئا حقيرا .

يريد الشارع من المتصدق أن يكون سمح النفس ، فأرشده إلى أن ينفق من طيب ما عنده ولا يزدرى الفقير فيقصد إلى الردىء من نحو طعام أو ثياب فيتصدق به وهو قادر على أن يتصدق بما هو خير منه ، قال تعالى :

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ " .

حث الإسلام على الصدقات وحاطها بآداب تجعلها لدى المتصدق عليه سائغة هنيئة . ندب إلى أن تعطى الصدقات فى خفاء، ذلك أن إعطاءها ذا الحاجة فى علن يكسر خاطره وقد يأبى قبولها حيث يكون ممن يتجملون ويكرهون أن يطلع الناس على أنهم فى فاقة وأشار إلى هذا الأدب رسول الله صلوات الله عليه ، حين ذكر السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة، فقال : (ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ماصنعت يمينه) وأذكر أنى كنت قد عرفت جمعية خيرية فى بعض المدن الكبرى تبحث عن الفقراء من طرق سرية وتبعث إلى من تحققت فقرهم بما من المال على طريق البريد دون أن يعلموا الجهة التى أرسلتها إليهم .

ونبه الشارع الحكيم على أن فضل الصدقات فى يبذلها الإنسان إجابة لداعى الرحمة، ولا ينتظر ممن يبذلها لهم أو يقابلوها بجزاء أو شكر، قال تعالى فى وصف المصطفين من عباده :

" وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا " .

ومن أجمل آداب الإحسان أن يبذله الرجل بوجه طلق فإن طلاقة الوجه تنبئ بأن الإحسان صادر عن نفس عريقة فى الكرم ، شاعرة بأن ما تتصدق به إنما هو رزق للفقير أجراه الله على طريقها .

وأصدق شاهد على سماحة الرجل ورقة عاطفته أن يواصل بالإحسان، ولا يقطعه عن ذى الحاجة ولو كان يمسه بأذى، وقد نبه القرآن الكريم لهذا الأدب العظيم ، فقال تعالى:

" وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ " .

ومن أدب الإحسان أن يتجنب الرجل المنّ بما أعطى . وإنما يعقب المنّ عطاء لم يكن ناشئا عن فضيلة ولا عن عاطفة نبيلة ، وقد جعل الشارع المنّ ماحقا للصدقة فلا يقام لها وزن ولا ترجى لها مثوبة ، قال تعالى :

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ " .

لا يليق بالمحسن أن يمنّ على الفقير بما أعطى ولا أن يتبع إحسانه بأذى ، ولا يليق بمن تلقى الإحسان أن يقابله بالكفران . وكفران النعمة قد يكون سببا لقطعها ، والذين يواصلون الإحسان ولو مع مقابلته بالكفران ليسوا بكثير .

أمر الشارع بإغاثة الفقراء على وجه عام دون أن يعين وقتا للتصدق أو مقدارا لما يتصدق به ، بل وكل ذلك إلى استطاعة الرجل ، وسماحة نفسه ، وشعوره بحاجات البائسين ، وجعل هذا مضمارا يتنافس فيه عشاق مكارم الأخلاق ، ويتفاضلون فيه درجات .

وفرض الشارع كفارات على بعض ما يرتكب من المخالفات ، ونظر في تقدير هذه الكفارات إلى حاجة الفقراء ، فجعل من أصنافها إطعام المساكين ، كما جعل من أصناف كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين وفي أصناف كفارة الإفطار في رمضان عمدا إطعام ستين مسكينا ، وكذلك جعل إطعام المساكين كفارة للإحلال ببعض واجبات الحج .

علم الشارع وهو علام الغيوب أن في الناس شحا ، وأن في الناس أهواء طاغية فم يكتف بما دعا إليه على وجه التذكير بمكارم الأخلاق من إغاثة الملهوفين ، فأذن الأغنياء بأن في أموالهم التي تحت أيديهم حقوقا للفقراء يجب أن يسلموها لهم طائعين أو مكرهين ، وقدر هذه الحقوق بحكمة ، وعين لها أوقاتا ، وتلك فريضة الزكاة .

فرضت الزكاة على الأغنياء ، والغنى في نظر الشارع من يملك عشرين دينارا فما فوقها ، كما فرضت الزكاة فيما يملكه الناس من الأنعام ، أو تخرجه المزارع أو الأشجار من الحبوب والثمار ، وأحكام الزكاة مفصلة في كتب الشريعة وإنما نريد التنبيه لعظم فائدتها في إصلاح الأخلاق وحال الاجتماع حتى استحقت أن تعد في أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين .

يقع الفقراء العاجزون عن اكتساب أقواتهم في كثير من البلايا : تعتل أجسامهم لقلة الغذاء الكافي لحفظ صحتهم ، وتغتم قلوبهم خوفا على حياتهم أو حياة من يعز عليهم من أبنائهم وأزواجهم ، وقد يحملون في أنفسهم عداء لذوي الأموال إذ يسبق إلى أذهانهم أن الموسرين شاعرون بما هم فيه من البأساء والضراء ولم يكترثوا بهم .

وحيث كان من مقاصد الإسلام تكوين أمة قوية الأجسام ، مطمئنة القلوب متماسكة برباط الوداد والاتحاد ، متمتعة بأمن شامل ، بادر إلى علاج مرض البؤس والفاقة ، ففرض الزكاة على وجه يجعل الفقراء العاجزين عن الكسب فى كفاف .

فاذا قلنا : ان الشارع جعل شطرا من الزكاة يصرف إلى الفقراء والمساكين وشطرا منها يصرف فى الاستعداد للدفاع ، فكأنما قلنا : إن الشارع قد فرض الزكاة لتكون وسيلة القوة المادية والقوة النفسية ، و بالقوتين تبلغ الأمة أقصى ما تروم من العزة والمنعة .

ندب الإسلام إلى الصدقات ، وفرض الزكاة فقدرها أحسن تقدير ، وأوجب على الناس أن يطعموا المسكين الجائع ولو كانوا قد أدوا زكاة أموالهم ، وقد توعد على ترك هذا الواجب الانسانى بالعذاب الأليم ، اقرأوا ان شئتم قوله تعالى :

" كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ " .

يجازى بعذاب الحريق من منع المساكين حقوقهم من الزكاة ، ومن أبصر مسكينا فى مجاعة فلم يعنه ، وقد دل القرآن الكريم على أن قسطا من هذه العقوبة يستحقه من لا يحض الموسرين على إطعام المساكين ، يدل على هذا قوله تعالى :

" خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ " .

هذه كلمتنا فى حقوق الفقراء على الأغنياء ، فلو تعاونت الأمة والدولة على مكافحة البطالة ، ثم عمدتا بالتى هى أقوم على أن يؤدى الأغنياء هذه الحقوق ، فتصل الى أربابها على وجه منتظم لأصحنا فى مقدمة الأمم القوية فى أخلاقها ، المطمئنة فى عيشها ، وادا ظفرت الأمة بقوة الأخلاق وطمأنينة العيش ، فهنالك تظهر طبقاتها متماسكة ما بين الثروة والكفاف ، وهنالك تكون العزة والسعادة .

محمد الخضر حسين